من قضايا مقارنة الأديان: الميزان

أ.د. محمود مزروعة
عميد الكلية

فى مجال الدراسات الدينية يوجد علمان متميزان هما :

« تاريخ الأديان » و « مقارنة الأديان» وكل من العلمين يمتاز عن الآخر بموضوعه والهدف من دراسته

فعلم « تاريخ الأديان » يعنى بدراسة نشأة الدين ، وعوامل انتشاره أو انحساره ، والأطوار التى مرت به أو مر بها ، كما يعنى بدراسة محتوى الدين . والمصادر التى استقى الدين منها محتواه هذا . وذلك بصورة إجمالية .

أما علم « مقارنة الأديان » فيعنى بدراسة الأديان مقارناً بعضها ببعض سواء من حيث النشأة والانتشار . أو من حيث المحتوى عقائد وأعمالا . وهذا هو الأهم ، أو هو المقصود الأصلى .

واضح من ذلك أن « تاريخ الأديان » علم يقوم على دراسة دين واحد كما يمكن أن يدرس أكثر من دين . أما « مقارنة الأديان » فعلم لا تكون دراسته إلا من خلال دينين أو أكثر . ذلك أنه يقوم على المقارنة، والمقارنة لا تكون إلا بين اثنين أو أكثر ، والدراسة فى مقارنة الأديان تقوم على التحليل والمقارنة ، بحيث يتضح من خلال ذلك ما هو حق وما هو باطل من تلك الأديان ممثلة فى محتواها من العقائد والأعمال .

هـذا ما بين العلمين من تمايز فى الموضوع . أما تمايزهما من حيث الهـدف والغاية من الدراسة ، فإن « تاريخ الأديان » قد يكون الهدف

من دراسته ضربا من دراسة التاريخ الإنسانى والعوامل المؤثرة فى مسيرته وتوجيهه ، وقد يكون الهدف ضربا من ضروب الثقافة الفكرية القائمة على دراسة الثقافة الإنسانية عبر مراحلها المختلفة ، وقد يكون الهدف هو البحث عن الحق وراء ذلك الركام الهائل من الأديان التى تكونت عبر المراحل التى مرت بها البشرية .

أما علم مقارنة الأديان ، فلا يكون الهدف من دراسته إلا البحث عن الحق من خلال تحليل العقائد والعبادات والمحتوى كله بصورة تفصيلية ، ثم مقارنة تلك فى دين بمثيلاتها فى دين آخر أو فى أديان أخر . مقارنة تعتمد على ميزان صحيح دقيق نستطيع به أن نميز بين الحق والباطل من محتوى الأديان ، وبالتالى من الأديان نفسها .

وقبل أن ندخل فى مجال المقارنة بين الأديان فى قضاياها الكبرى ، وبخاصة قضايا العقيدة ، من حيث أن القضايا العقدية هى أصل الدين ، وهى الأساس الذى يقوم عليه كل دين . نقول : قبل أن ندخل إلى مجال المقارنة والموازنة بين الأديان يجب علينا أن نبحث عن الميزان أو المقياس الذى سوف نعتمده فى مقارناتنا بين الأديان ، وموازناتنا لعقائدها المختلفة وقضاياها العديدة .

والعثور على ذلك الميزان واعتماده معياراً للمقارنة أمر بالغ الأهمية ، واعتماد ذلك فى بداية البحث ، وقبل أن نخطو فيه أمر ضرورى ، فإننا قبل نزن الأمور يجب أن نعثر على الميزان أو الآلة التى نزن بها .

والميزان الذى نبحث عنه يجب أن تتوفر فيه شرائط عدة أهمها ما يلى :

١ — أن يكون صالحاً لأن توزن به الأمور الدينية ، وهى أمور مجردات فى أصولها .

٢ — أن يكون ميزاناً عاماً شاملاً لا يختص بدين دون آخر ، أو بقوم دون سواهم .

٣ — أن يكون في متناول الباحث وفي إمكانه، فلا نطلب من الباحث المستحيل، ولا نكلفه من أمره شططا.

٤ — أن يكون واضح الحقائق، سهل المبادىء، بعيدا عن التعقيدات النظرية التي تثير الجدل، وتعفي على الحقيقة، وبمعنى آخر: أن يكون مسلماً من الجميع، أو من شأنه أن يكون كذلك.

٥ — يبنى على ذلك أن يكون ميزانا ملزماً للجميع، فلا يعارض فيه منصف، ولا يرفضه إلا جاحد معاند. والمعاندون في غير حق لا وزن لهم.

* * *

وقد اجتهد الباحثون محاولين التوصل إلى ميزان تتوفر فيه تلك الشرائط التي أشرنا إليها — مع اختلاف يسير بين الباحثين في تلك الشرائط —. فاختلفوا في طرائق البحث، ثم اختلفوا في النتائج التي توصلوا إليها.

— فبعض الباحثين انقطع به السبيل، فيئس من وجود ذلك الميزان فاعتمد عقله ووجدانه ميزانا، وأخذ يبحث ويقارن بين الأديان معتمدا على ذلك الميزان، معتبرا عقله ووجدانه ميزانا ملزما للجميع.

ويندرج تحت هذا القسم جمهرة الباحثين في ذلك العلم، وجل البحوث والمؤلفات التي كتبت فيه.

وليس يخفى بطلان ذلك المنهج الذي يعتمد على وجهة نظر شخصية بحتة. إذ كل إنسان يستطيع أن يزعم لنفسه مازعم هؤلاء لأنفسهم (١).

---

(١) من هؤلاء جمهرة الباحثين في هذا المجال — مقارنة الأديان — فهؤلاء لا يعتمدون ميزانا للمقارنة، ولا يبدو عليهم أنهم يهتمون لذلك،

والبعض الآخر وصل إلى مقاييس وموازين ، لكن تلك المقاييس على اختلافها وتعددها لم تتوفر لها تلك الشرائط التي ذكرناها كلها أو بعضها . ومن ثم كانت غير وافية بالغرض .

فهؤلاء وأولئك .

* * *

ونحن حين نستعرض الأمور المتاحة التي يمكن أن يتكون منها ميزان توزن به العقائد الدينية فيتضح الحق من الباطل ، ويمتاز الطيب عن الخبيث ، فإننا نجد هذه الأمور تنحصر في أمرين أصيلين ، وأمر ثالث مساعد . وسوف ننظر في هذه الأمور واحداً بعد واحد لنرى ما لها وما عليها ، ومتى تصلح ، ومتى لا تصلح .

أولا : العـــقل .

والعقل أياً كان تعريفه فهو القدرة المميزة المدركة التي منحها الله ـ تعالى ـ الإنسان ليميز بها بين الخبيث والطيب ، ويدرك بها الخير والشر ، فتدفعه إلى الخير ، وتعقله عن الشر .

= بل يحللون القضايا ويبحثونها ، ثم يصدرون أحكامهم انطلاقاً من عقائدهم وما يدينون .

وفوق أن بحوث هؤلاء قد تكون أدخل في مجال « تاريخ الأديان » ، فإنها غير ملزمة لأصحاب الملل الأخرى ، بناء على أنها قامت على موازين شخصية لا يقرها إلا صاحبها ، ومثل هذه البحوث قد تكون مفيدة لصاحبها ومن على دينه .

لكن العقل فى أصله استعداد يتلقى المعقولات من الخارج فيدركها ويختزنها ، ويوجه الإنسان انطلاقا منها . فالعقل — إذن — حصيلة العالم الخارجى ، يتلقى عنه ، ويتأثر به ، وينفعل به فيما يصدر عنه من أحكام . ومن ذلك كان حقا ماقيل : إن العقل ابن بيئته ، ولئن كانت هذه العبارة غير صادقة على إطلاقها ، فهى صادقة فى الأعم الأغلب ، وبخاصة فيما يتصل بجانب المعتقدات والوجدانيات التى تتسرب إلى الإنسان منذ مولده فى غيبة من عقله . فلا يكاد يبلغ رشده ، وتكتمل فيه القوة المميزة العاقلة حتى يكون قد أضحى أسير تلك المعتقدات والاتجاهات الوجدانية . ويصبح غير قادر على الخروج عليها أو الانفلات منها ، لأنها تمكنت من قلبه ، وضربت بجذورها فى وجدانه قبل أن تكتمل فيه القوة التى بها يميز بين الحق الباطل والخير والشر .

ولعل هذا يفسر لنا ذلك الأمر الذى يبدو عجيبا، حين ترى الرجل قد يبلغ من الذكاء وقوة الفهم مبلغا عظيما ، حتى ليشتهر بين الناس بقوة الفهم وشدة الذكاء ، ورغم ذلك تجده يعتنق من المعتقدات ما هو واضح السقوط بدهى البطلان بكل المقاييس ، ويفسر لنا أيضا تعصب أصحاب الأديان الباطلة لأديانهم رغم وضوح بطلانها ، وظهور الحق فى غيرها .

يتضح مما تقدم أن العقل — على إطلاقه — لا يصلح مقياسا نقيس به الأديان ، ونقيم على أساس منه علم مقارنة الأديان . وقد يصلح مع شروط وتحفظات نبينها فيما بعد — بعون الله تعالى — .

• • •

ثانيا : الفطرة .

نأتى بعد ذلك إلى الفطرة الإنسانية . أو تلك القوة المدركة المميزة التى تأتى فى المرتبة الأولى من قوى الإنسان الهادية المميزة. ونفرق بينها وبين

القوة العاقلة بأن العاقلة تبنى أحكامها على أسباب واضحة جلية ، وتصدر عن حجج وأدلة برهانية . أما القوة الوجدانية فتدرك وتميز وتصدر أحكامها بشكل مبهم غير واضح غالبا . ولا تخضع أحكامها لأسباب جلية ، أو براهين منطقية .

وقد يستقيم العقل مع الفطرة ، وقد يتعارضان ، بأن يقتنع العقل بأمر ما بناء على أسباب وخطط واضحة ، لكن الإنسان ـ رغم ذلك ـ يكون منقبض النفس ، ضيق الصدر ، رافضا ذلك الذى رضيه العقل . وعلى كل فإن الفطرة هى النور الربانى ، والسر الإلهى الذى فطر الله ـ تعالى ـ الإنسان عليه ، وإذا استقام فى الإنسان ، وسلك الإنسان على مقتضاه عرف ربه ، وأدرك الخير وأحبه ولزمه ، وأدرك الشر ومقته واجتنبه .

لكن الفطرة السوية تدلوثها الوسواس الخناس ، ومايزال ـ لوثها فى الآباء ، وتولى الآباء نقل جرثومة الفساد والضلال إلى الأبناء ، فانتشر الفساد ، وعم الضلال مجتمع الإنسان إلا من رحم الله وقليل ماهم ، بل هم أقل من القليل فى هذا الزمان .

يقول الرسول ـ ﷺ ـ إشارة إلى هذا المعنى الذى ذكرناه : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو يمجسانه ، أو ينصرانه » . الحديث ، وواضح أن المراد بالفطرة فى الحديث هو الدين الحق : الإسلام . بدليل مقابلتها بالأديان الباطلة . فالأبوان أفسدا فطرة الأبناء . والذى أفسد فطرة الأبوين هم آباؤهم ، وهكذا تصل إلى جرثومة الفساد وهو الشيطان الذى بدأ العمل بنفسه ، ثم جند له جنوداً من الجنة والناس .

ويقول الله ـ سبحانه ـ إشارة إلى أنه ـ تعالى ـ أقام فطرة الإنسان على مقتضى دينه :

[فأقم وجهك للدين حنيفة فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله

ذلك الدين القيم] فالله — سبحانه — قد فطر الناس على مقتضى دينه الحق — ولكن الشيطان أضل الناس وأفسد فطرهم، كما يوضح الحديث الشريف.

والفطرة بهذا المعنى لا تصلح — على إطلاقها — ميزانا يوزن به الأديان، أو فيصلا بين حقها وباطلها . وقد تصلح ولكن ليس على إطلاقها ، بل لابد من تحفظات وشروط نحترز بها من فساد الفطرة ، حتى نستطيع أن نستعين بها فى هذا المجال . وهذه التحفظات نذكرها فى حينها — إن شاء الله — تعالى — .

• • •

ثانياً : التجرد

نأتى بعد ذلك إلى الأمر الثالث الذى أشرنا إليه قبلا ، وقلنا إنه ليس أصيلا كالعقل والفطرة . بل هو أمر مساعد لكليهما . يعين كلا منهما على البحث والتحليل وإدراك الحق بعيدا عن عوامل التعصب الأعمى ، والهوى المضل . وهذا العامل حقيق — إذا أحسن الآخذ به — أن يخرج الباحث من مجال التعصب المتكلف لما يعتنق ، إلى مجال البحث الصادق عن الحق والإقرار به ، ولو كان على خلاف معتقده ومايدين .

ونعنى بذلك عامل «التجرد» . ويراد به أن يتجرد الباحث تجردا كاملا عن التعصب لعقيدته وجنسه وكل اتجاهاته جملة ، ثم يبدأ بحثه بعيدا عن تلك العوامل التى تؤثر فى نظرته إلى الأمور ، وتقويمه إياها ، وبالتالى فى أحكامه التى يصدرها .

وحينما نادى بمنهج «التجرد» قوم من الغرب منذ وقت ليس بالبعيد ، احتفل الكثيرون بالمنهج وواضعيه — أو مكتشفيه — بالمعنى الصحيح — ،

وأشادوا به وأهله، ظانين أن المشكلات كلها قد حلت باكتشاف ذلك المنهج وأن الحقائق أضحت بواسطته واضحة الملامح ناصعة الجبين.

وقد أخطأ هؤلاء خطأين.

الأول: أن المنهج قديم وليس حديثا كما يظن واضعوه ومؤيدوه. فلقد جاء القرآن الكريم بذلك المنهج منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنا من الزمان. ولقد تضمن القرآن الكريم مستويات عدة لذلك المنهج.

منها ما يتصل بالدين، وتقرير ما هو حق منه وما هو باطل، من ذلك ما وجهه الله — تعالى — لكفار قريش حين طلب منهم النظر فيما أتى به رسوله — ﷺ —، نظراً يقوم على التجرد في طلب الحق، بعيدا عن أهوائهم وما يكنون لرسول الله — ﷺ — من أحقاد وضغائن. يقول الله — سبحانه وتعالى —:

(قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة).

ومنها ما يتصل بالفروع في إطار الدين. من ذلك ما خاطب به الله — تعالى — المؤمنين، أن يتجردوا في القضاء على الناس شهادة أو حكما، فلا يميل بهم عن الحق حب أو بغض. يقول — تبارك وتعالى —:

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا).

وهذا المنهج الذي جاء به القرآن الكريم هو المنهج الذي يناسب طبيعة الإنسان ولا يفوق إمكاناته. وسنوضح ذلك فيما يلي — بحول الله تعالى —.

الثانى : وقد أخطأ هؤلاء ثانية حين طلبوا أمراً هو فوق طبيعة الإنسان، وقصدوا منه شيئاً يفوق إمكاناته . فبدهى أن الإنسان لا يستطيع أن ينبذ دينه ومعتقده وجنسه واتجاهاته كلها فى لحظة ليبحث قضية ما ، فإذا ما انتهى من بحثه استرد ذلك جملة واحدة . فدين المرء وقومه ووطنه وميراثه كله ليس قميصاً يخلعه حين يشاء ويلبسه حين يريد ، كذلك من الأمور غير المقبولة أو المعقولة أن يطلب من الباحث إذا ما أراد أن يبحث الأديان الأخرى أن يطرح دينه جانباً ويتخلى عن معتقده . وقد عرفنا أن ذلك عسير أشد العسر ، صعب غاية الصعوبة ، وقد بين لنا القرآن الكريم أن الكفار قد عجزوا عن ترك دينهم وهم يدركون بطلانه ، واعتناق الدين الحق وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم يقول — سبحانه وتعالى — :

(وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) .

ويقول — تبارك وتعالى — :

(فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) .

ونحن — وإن كنا لا نقر تلك العصبية الجاهلية للباطل ضد الحق ، وندين أصحابها الذين عرفوا الهدى فاختاروا الضلالة على الهدى ، فكانوا من الذين أضلهم الله على علم — لا نغفل الأمارات الواضحة فى ذلك الدالة على مدى صعوبة التخلى عن الدين والمعتقد .

أما ما جاء به القرآن الكريم فى منهج التجرد ، حين طلب القرآن الكريم من كفار قريش أن يحكموا فى شأن محمد — صلى الله عليه وسلم — وما جاء به متجردين عن الهوى ، فإن القرآن العظيم لم يطلب من الكفار أن يدعوا نظاما معتقدا ليحتكموا إلى نظام مثله . ولكنه طلب منهم ذلك ليحتكموا إلى مسلمات العقل وبدهيات الفطرة ، والإنسان العاقل من شأنه أن يقف عند حدود المسلمات والبدهيات ، فيلتزم أحكامها ولا يجادل فيها . ومن المسلمات

عقلا وفطرة التجريبيات التي وصل إليها القوم في شأن محمد — ﷺ — على مدى يزيد على الأربعين عاماً، فقد عرفوه — عليه الصلاة والسلام — صادقا لا يكذب، أمينا لا يخون، والمعرفة التي تبنى على مثل هذا القدر من التجربة من شأنها أن تكسب اليقين، وأن تقطع عناد المعاندين.

وهذا هو الذي حدا برسول الله — ﷺ — أن يحرك في الناس هذا اليقين التجريبي، ويلفتهم إلى تلك الحقيقة التي لا يمارى فيها أحد منهم. وذلك في اللحظة التي عزم على إبلاغهم دعوته. فقال لهم: أو رأيتم لو أبلغتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أو كنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبا قط.

• • •

الميزان:

هذه الثلاثة التي سبق الكلام عنها — العقل والفطرة والتجرد — هي ما يدور الباحثون في فلكها بحثا عن ميزان مأمون معتبر يقارنون في ضوئه الأديان، ويزنون العقائد، وقد اختلف الباحثون فيما بينهم اختلافات كثيرة، حول الميزان نفسه، وحول الضمانات والشروط التي تجب مراعاتها حتى لا يحيد الميزان عن الحق. وما دمنا قد وضعنا أنفسنا في ذلك المجال، فلا مفر من أن ندلي بدلونا مستعينين الله — وهو المستعان — سبحانه —.

وفي ضوء الدراسة التحليلية الموجزة التي قدمناها عن كل من هذه الثلاثة. نستطيع أن نقرر بأن كل واحد من الثلاثة لا يصلح منفردا، كذلك لا يصلح على إطلاقه. لابد — إذن — من جمع الثلاثة معاً. كذلك لابد من وضع التحفظات التي تضمن أنتاجها والاستفادة منها. فالميزان — في رأينا —

يمكن أن يصاغ من الثلاثة متعاونين . فالعقل والفطرة يصلحان ، ولكن مع تأثرهما بالبيئة وما يشيع فيها من مؤثرات متعددة تجعل من العسير أن تلتقي العقول والفطر لدى الناس في النظريات على كلمة سواء . فإن الاستفادة والأمان بالنسبة إلى العقل والفطرة إنما يكمن في المسلمات والأوليات التي لا يقع فيها الجدال والمشاحنة . ثم إن الضمان لنجاح هذين — العقل الفطرة — إنما يكمن في الأمر الثالث وهو التجرد للحق، طلبا له، وبحثا عنه، ورغبة فيه ، وحرصاً عليه ، بعيدا عن الهوى .

• • •

الميزان الذي نراه — إذن — يقوم على العقل والفطرة في المسلمات والأوليات بعيداً عن الأمور النظرية التي يطول حولها الجدال والمشاحنة والعناد ، وتتفرع فيها المسائل ، وتتشعب القضايا، ويضيع الحق وسط ذلك كله، وإذا ماقام بحثنا ودراستنا على المسلمات من العقل والفطرة، وكان بحثنا مجرداً عن التعصب إلا للحق ، وعن الغرض إلا وصولا إليه . تكون من مجموع ذلك ميزان جدير بأن يأخذ بأيدينا إلى الحق ، ويهدينا — بإذن الله تعالى — سواء السبيل . وهو ميزان من شأنه أن يلزم جميع العقلاء ، لأنه يقوم على المسلمات والأوليات التي لا تقع فيها خصومة ، ولا يدور في إطارها عناد أو مشاحنة .

• • •

وعلى الصفحات التالية سوف نحاول تطبيق ذلك الميزان الذي ارتضيناه على مثال واحد . هو الاعتقاد في الذات الإلهية عند كل من اليهود والنصارى .

• • •

الذات الألهية

الاعتقاد فى الذات الإلهية فى دين ما لا يتضح إلا من خلال البحث فى صفات تلك الذات ، إذ أن الاعتقاد فى الصفات هو الذى يحدد معالم الاعتقاد فى الذات ، فنحن نرى كل ذى دين يؤمن بذات أو ذوات إلهية ، لكن ما تلك الذات أو الذوات ؟ وما حقيقة الاعتقاد فيها ؟ لا يتضح ذلك إلا من خلال دراسة الصفات التى يعتقد المؤمن اتصاف تلك الذات بها .

لذلك سوف نبدأ دراسة الاعتقاد فى الذات الإلهية ، بدراستنا الاعتقاد فى الصفات التى تتصف بها الذات عند المؤمنين بها .

* * *

صفة الوجود

صفة الوجود بالنسبة للذات الإلهية هى الصفة الأم التى يتوقف على ثبوتها ثبوت بقية الصفات للذات الإلهية ، فإذا لم تثبت تلك الصفة فإن ثبوت الصفات الأخرى يمتنع تلقائيا ، وكذلك إذا ما لحقها نوع من النقص ، فإن ذلك النقص ذاته ينعكس على الصفات الأخرى فيلحقها ، لهذا كان الحديث عن صفة الوجود يسبق دائما الحديث عن الصفات الأخرى للذات الأقدس — سبحانه وتعالى — .

وصفة الوجود بالنسبة للذات الإلهية ، هى غيرها بالنسبة إلى الموجودات الأخرى ، ذلك أن صفة الوجود بالنسبة لكافة الموجودات — سوى الله — سبحانه وتعالى — هى صفة غيرية ، بمعنى أنها غير ذواتها ، فهى لم تلحق الموجودات لذواتها ، بل لحقتها لسبب خارج عن تلك الذوات فاعل فيها ، وذلك الوجود الذى لحق الموجودات هو أثر فعله ، فهى — اذن — موجودة

بفعل غيرها ، لذلك صح أن يقال : إنها موجودة لغيرها أو من غيرها ، ودليل ذلك أن تلك الموجودات لم تكن ثم كانت ، بمعنى أنها كانت قبل وجودها معدومة ، ثم وجدت ، ولو كان الوجود يلحقها لذواتها لما قبلت العدم سابقا أو لاحقا ، لأن ما بالذات لا يتخلف .

أما الوجود بالنسبة للذات الإلهية فليس شيئاً زائداً على الذات أو غير الذات، بل هو عين الذات، فهو صفة ذاتية وليست غيرية كما في الموجودات الأخرى ، ولأن الوجود في الذات الإلهية هو عين الذات وليس شيئاً زائداً عليها عرفت صفة الوجود بأنها : صفة نفسية ، بمعنى أنها نفس الذات وليست غيرها .

ولأن الوجود في الموجودات الأخرى غير ذواتها، فقد صح أن يضاف إليها فتوجد ، وأن يسلب عنها فتفنى .

أما الذات الإلهية فالوجود عين ذاتها ، لذلك استحال أن يسلب عنها لأنه — أصلا — لم يضف إليها ، ومن ثم فقد امتنع أن تتصف بالفناء أو العدم سابقا أو لاحقا .

هذا الذي قلناه عن صفة الوجود ليس خاصا بدين أو عقيدة بعينها ، بل هو من مسلمات العقل والفطرة لدى المتدينين جميعا، وبخاصة في الأديان الكتابية ، بل هو من المسلمات لدى العقلاء جميعا، لذلك قدمنا بهذه السطور قبل أن ندخل في التفصيلات التي يختلف حولها المتدينون ، ليعلم أن هذه الحقيقة لا يختلف حولها أحد من أتباع الديانات الكتابية ، على الأقل من الناحية الكلامية ، كما يتضح ذلك في حينه .

وإذا انتهينا من الكلام على صفة الوجود بصورة عامة ، فلندخل بعد ذلك إلى دراسة عقيدة المتدينين من أهل الكتاب في هذه الصفة ، ولنبدأ بعقيدة اليهود ، ثم النصارى ، والله — سبحانه وتعالى — هو المستعان .

أولا : فى عقيدة اليهود

يعتقد اليهود أن الله — سبحانه وتعالى — موجود ، وأن وجوده — تعالى — أزلى لم يسبق بعدم ، ويعتقدون أن الله — عز وجل — كان ولا شىء معه . ثم خلق كل شىء من عدم ، فأوجد العالم كله بكلمة « كن » أو بكلمة « فليكن » ، وقد خلق الله — تبارك وتعالى — العالم فى ستة أيام ، تبدأ بالأحد وتنتهى بالجمعة،ثم استراح — سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا — فى اليوم السابع،ويعتقد اليهود أن الوجود الحق هو وجود الله — تعالى — وكل ما عداه من موجودات فإنما يستمد وجوده منه — سبحانه وتعالى — .

وعقيدة اليهود هذه عقيدة صحيحة، وهى العقيدة التى تذهب إليها الفطرة السوية ، ويؤيدها العقل السليم ، ولا يوجد لدينا تعقيب عليها، وإن كان لنا عود إليها فيما يتفرع عنها من نتائج، ومدى التزامهم بتلك العقيدة عند حديثنا عن بعض الصفات الأخرى وموقفهم منها .

• • •

ثانيا : فى عقيدة النصارى :

يعتقد النصارى فى وجود آلهة ثلاثة ، ويعتقدون أن كل واحد من الآلهة الثلاثة متصف بصفة الوجود استقلالا عن الإلهين الآخرين ، وأن وجود كل من الآلهة الثلاثة هو وجود أزلى قديم لم يسبق بوجود آخر ، وهم يعتقدون كذلك أن وجود الموجودات الأخرى فرع عن ذلك الوجود الأزلى القديم ، فوجود الآلهة ذاتى ، ووجود العالم غيرى .

ولكى تتضح عقيدة القوم ونستطيع مناقشتها ينبغى علينا أن نشرحها

ونوضحها من خلال كتبهم المقدسة، وشروحهم وأحاديثهم وشعائرهم أيضا، وسنلتزم بكل أمانة ودقة نقل عقيدتهم كما هي عندهم.

يعتقد النصارى فى وجود آلهة ثلاثة هم على الترتيب :

١ – الله : الآب

٢ – الله : الابن .

٣ – الله : الروح القدس .

وهؤلاء الآلهة الثلاثة يحتلون فى عقيدتهم منزلة متماثلة فيما يتصل بالصفات الكمالية ، فكل إله من هؤلاء الثلاثة موجود ، حى، مريد، عليم، قادر ، سميع ، بصير . . . إلى آخر الصفات الإلهية الكمالية ، وكل منهم مستقل بهذه الصفات فى ذاته استقلالا تاما .

وهم يعتقدون – رغم ذلك – أن هؤلاء الثلاثة الذين يستقل كل منهم بذاته وبصفاته وأفعاله ، يعتقدون أن هؤلاء الثلاثة إله واحد فقط ، ولا يسبقن إلى ظنك أننا قد نقضنا عهدنا بصدق النقل عن القوم ، وأننا نفترى عليهم ، فإننا صادقون فى النقل عن القوم ، وإن القوم جادون فيما يقولون لايهزلون ، هم جادون فى اعتقادهم بآلهة ثلاثة كل منهم مستقل بذاته وصفاته ، وجادون أيضا فى اعتقادهم بأن هؤلاء الثلاثة إله واحد وذات واحدة ، وهم يعبرون عن عقيدتهم تلك بأنها : تثليث فى توحيد ، وتوحيد فى تثليث ، ويصفون آلهتهم بأنهم : ثلاثة فى واحد ، وواحد فى ثلاثة ، ولنأخذ بعض النصوص التى توضح عقيدتهم تلك من كتبهم وشروح علمائهم .

يقول الدكتور يوسف بوست – وهو أحد علمائهم – شارحا تلك العقيدة : « طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية : الله الآب ، الله الابن ، الله الروح القدس ، فإلى الآب ينتمى الخلق بواسطة الابن ،

وإلى الابن الفداء ، وإلى الروح القدس التطهير ، غير أن الثلاثة تتقاسم جميع الأعمال الإلهية على السواء »(١) .

وهذا عالم آخر من علمائهم يوضح عقيدتهم تلك . ويحاول أن يقيم الدليل على أن التثليث أمر بدهى ، وأن الإله الواحد لا يصلح أن يكون إلهاً . بل لابد أن يكون ثلاثة . وإلا بطل كونه إلهاً .

يقول عالم من علمائهم المشاهير فى ذلك : —

« من الناس من يقول : لم يا ترى إله واحد فى ثلاثة ؟ أو ليس فى التعدد انتقاص لقدر الله ؟ أو ليس من الأفضل أن يقال : الله أحد وحسب ؟ لكننا إذا اطلعنا على كنه الله لا يسعنا إلا القول بالتثليث ، فكنه الله محبة . ولا يمكن إلا أن يكون محبة ليكون سعيداً ، فالمحبة هى مصدر سعادة الله . ومن طبع المحبة أن تفيض وتنتشر على شخص آخر ، فيضان الماء وانتشار النور . فهى إذن تفترض شخصين على الأقل يتحابان ، وتفترض مع ذلك وحـــدة تامة بينهما ، فلكى يكون الله سعيداً . — ولا معنى لإله غير سعيد وإلا انتفت عنه الألوهية — كان عليه أن يهب ذاته شخصاً آخر يجد فيه سعادته ومنتهى رغباته ، ويكون بالتالى صورة ناطقة له ، ولهذا ولد الله الابن منذ الأزل نتيجة لحبه إياه ، ووهبه ذاته ، ووجد فيه سعادته ومنتهى رغباته ، وبادل الابن الآب هذه المحبة ووجد فيه سعادته ومنتهى رغباته . وثمرة هذه المحبة المتبادلة بين الآب والابن كانت الروح القدس .

هو الحب إذن يجعل الله واحداً وثالوثاً معاً ، ولا يصح أن يكون هذا الكائن الذى حبس الله محبته عليه إلا الابن . إذ لو كان غير الابن ، بان

(١) قاموس الكتاب المقدس ، ص ١٦ .

كان بشراً أو ملاكاً ، لكان خليقة محدودة ، ولكان الله بحاجة إلى من دونه كمالا ، وعد ذلك نقصا فى الله ، والله منزه عن النقص .

ليس الله إذن كائنا تائها فى الفضاء ، منعزلا فى السماء ، ولكنه أسرة مؤلفة من ثلاثة أقانيم تسودها المحبة ، وتفيض منها على الكون براءته ، وهكذا يمكننا أن نقول : إن كنه الله يفرض التثليث »(١) .

ويقول مؤرخهم المعروف الأستاذ زكى شنوده : —

« وقد عرف المسيحيون من السيد المسيح أن الله واحد فى ثلاثة . هم الأب . والابن ، والروح القدس . وأن هؤلاء الثلاثة هم طبيعة واحدة ، وذات واحدة ، وجوهر واحد منزه عن التأليف والتركيب . وهذه حقيقة تفوق الإدراك البشرى . وقد فهمنا من كلام السيد المسيح أن الآلهة الثلاثة الذين هم فى واحد وإن اتحدوا جوهراً وطبعا وذاتا وصاروا واحداً ، إلا أنهم ثلاثة لا واحد ، إذ فالأب ليس هو الابن ، والروح القدس ليس هو الأب ولا الابن »(٢) .

وأعتذر إلى القارىء الكريم من الإطالة فى النصوص المنقولة بما لا يتفق مع هذه المذكرات الموجزة . ولكننا عمدنا إلى ذلك حتى نتقى تهمة الافتراء على القوم ، فقد يسبق إلى الوهم أننا نفترى عليهم حديث الخرافة هذا . فأثبتنا تلك النصوص التى اشتملت على أمرين هامين :

الأول : شرح عقيدتهم وتوضيحها على هيئة مفصلة .

الثانى : إقرارهم بأن هذه العقيدة لا تتفق مع العقل . بل تتعارض مع

---

(١) بولس إلياس اليسوعى ، يسوع المسيح . ص ٧٦ — ٧٧ م .
(٢) زكى شنودة . تاريخ الأقباط . جـ ١ ص ٣٣٤ .

بديهة العقل وتناقض مسلمات الفطرة . ومن هنا جاء إلحاحهم الشديد بضرورة تعطيل العقل حتى يتسنى لهم قبول هذه العقيدة، لاغرابة أن كانت عقيدة المجردين عن الإدراك ، الفاقدين نعمة التمييز فى أدنى درجاته .

ويهمنا أن نركز على بعض النقاط التى جاءت فى تلك النصوص لحاجتنا إليها فى الحديث عن صفة الوجود بالنسبة لله — سبحانه وتعالى — .

فالقوم يعتقدون أن « الإله : الأب » كان وحيداً ، فأحس بحاجته إلى ذات ثانية توجد معه ويفيض عليها محبته ، لذلك أوجد «الإله الأب» تلك الذات ، وكانت تلك الذات هى «الإله : الابن» ، وعندما وجد الابن أحبه الأب حبا شديداً ، وبادله الابن حبا بحب ، فنشأ عن المحبة المتبادلة بينهما إله ثالث هو « الإله : الروح القدس » .

والناظر فى هذه العقيدة انطلاقا من شرحهم لها وتوضيحهم لتفاصيلها، يرى أن هنالك فروقا بين صفة الوجود بالنسبة لله الأب، وصفة الوجود بالنسبة لله الابن والله الروح القدس . وأوضح هذه الفروق أمران :

الأول : أن وجود الله الأب هو وجود بالذات وليس بالغير . فالله الأب موجود ، ووجوده لذاته ، فليس محتاجا فى وجوده الى غيره .

أما وجود الله الابن والله الروح القدس فهو وجود غيرى وليس ذاتيا . فهما موجودان لغيرهما وليس لذاتهما. فوجودهما مستمد من الغير ومستند اليه. والدليل على ذلك أن الله الابن قد وجد بسبب أن الله الأب أحس بالحاجة اليه والرغبة فيه . فأوجده أو « ولده » . كما هى عبارتهم ونصها: « فلكى يكون الله سعيداً، كان عليه أن يحب ذاته شخصا آخر... ولهذا ولدالله الابن » ، ثم نشأ الله الروح القدس بعد ذلك نتيجة لعلاقة المحبة

التى بين الآب والابن . وعبارتهم نصها: «وثمرة هذه المحبة المتبادلة بين الآب والابن هو الروح القدس» .

إذن ، الاله الابن والاله الروح القدس هما موجودان لغيرهما وليس لذاتيهما ، فوجودهما مستمد من الغير ومستند إليه ، وهما محتاجان الى الغير فى وجودهما سواء فى أصل الوجود أو فى استمراره وبقائه .

الثانى : أن وجود الله الابن والله الروح القدس هو وجود حادث وليس وجوداً قديماً ، ونعنى بذلك أن وجودهما لم يكن ثم كان . وهذا واضح من عقيدتهم . فهم يعتقدون أن الله الآب كان وحيدا ، فأحس بحاجته الى ثان ليفيض عليه من محبته وليتبادل معه المحبة ، وكان عليه أن يهب ذاته شخصا آخر ، وهذا ولد الله الابن .

وإذن فقد كان الله الآب وحده . ثم أحس بحاجته إلى ثان فوهب ذاته ابناً ، أو ولد الله الآب الله الابن . وإذن فهناك فارق بين الوجودين ، أحد الوجودين قديم ، وهو وجود الله الآب ، والوجود الثانى هو وجود حادث قطعا ، وهو وجود الله الابن ، وكذلك وجود الله الروح القدس الذى جاء تاليا لوجود الله الابن .

وهذه حقيقة تفرضها بداهة العقل ومسلمات الفطرة ، ولا سبيل إلى إنكارها أو إخفائها . ولا ينفعهم فى ذلك التلاعب بألفاظ لا مفهوم لها ، كقولهم : «وهذا ولد الابن منذ الأزل» ، فعبارة «منذ الأزل» لا معنى لها ، ولا تفيدهم شيئاً .

فنحن لا يعنينا الألفاظ والمصطلحات التى يقصد من ورائها إخفاء الحقيقة أو تغييرها ، ولكن تعنينا حقائق الأشياء التى تفرضها أوليات العقل وتحتمها مسلمات الفطرة .

(أ) فبداهة العقل ومسلماته تقضى بأن يكون الآب سابقاً على الابن فى

الوجود . وإلا فإن كان وجودهما معاً ، ولم يكن أحدهما سابقاً في الوجود، فما المسوغ لأن يكون أحدهما الأب والآخر الابن. ولماذا لايكون العكس ؟ وهو أمر إن حدث فلا مسوغ له أيضاً .

(ب) وبداهة العقل ومسلمات الفطرة تقضي بأن يكون الفاعل سابقاً على مفعوله في الوجود . فإذا كان الإله الأب وحيداً في الأزل ، ثم شعر بحاجته إلى شخص ثان يفيض عليه محبته ويبـــادله إياها ، فوهب ذاته الاله الإبن ، أو ولده كما يقولون ، فإن بداهة العقل تقضي بأن الإله الأب سابق في الوجود على الإله الابن . وأن الإله الأب كان أولا ولا شيء معه ، ثم أوجد الإله الابن في مرحلة لاحقة . ثم أوجدا الإله الروح القدس في مرحلة تالية لوجود الإله الابن . لأنه وجد نتيجة الحب المتبادل بين الأب والابن فيكون بعدهما ضرورة .

نصل من كل هذا إلى أن الآلهة الثلاثة في عقيدة النصارى ليسوا سواء في صفة الوجود التي يتصف بها كل منهم .

فالله الأب موجود لذاته ، ووجوده قديم .

والله الابن موجود لغيره ، ووجوده حادث .

والله الروح القدس موجود لغيره ووجوده حادث .

والنتيجة التي نصل إليها من ذلك . أن الإله الابن لا يصلح أن يكون إلها ، ومثل ذلك الإله الروح القدس لا يصلح أن يكون إلها . ذلك أن الإله لا يكون مفتقراً إلى غيره في الوجود . ولا يكون معدوما ثم يوجد .

فالإله لايكون محتاجاً لأن الاحتياج نقص. والإله كامل . وإذا كان الاحتياج هو في صفة الوجود التي هي الصفة الأم — على ما بينا — فإن الأمر يكون أوضح من أن يشرح ويفصل. وكذلك لا يكون الإله معدوماً

ثم يوجده موجد . فإن ذلك من شأن الموجودات الناقصة . والإله منزه عن ذلك .

يبرز من خلال هذه الدراسة الموجزة حقيقة واضحة لا غموض فيها ولا إبهام .

وهي أن النصارى يلزمهم القول بالتوحيد المطلق ، من خلال عقيدتهم هم ، حيث قد ثبت أن الثلاثة الذين يؤمنون بهم ، لا يصلح منهم إلهاً إلا إله واحد فقط . أما الاثنان الآخران فادعاء ألوهيتهما ادعاء باطل بكل المقاييس . فهما محتاجان إلى غيرهما في وجودهما . ثم في كل ما يترتب على الوجود من صفات . ثم هما حادثان أي موجودان بعد أن كانا معدومين ، وكيف يكون الإله محتاجاً إلى غيره ؟ ثم كيف يكون الإله حادثاً ؟ وذلك الإله الحادث من كان يقوم مقامه قبل أن يوجد ؟ إن كان الوجود في غنى عنه قبلا ، فهكذا ينبغي أن يكون بعداً . وإن كان هناك من قام مقامه في الأزل ، فهكذا ينبغي أن يظل السابق هو الإله وليس الحادث .

* * *

وهذا الذي قررناه لم يخف على معتنق هذه العقيدة الغريبة . فقد عرفوا أنها لا تستقيم مع عقل ولا منطق ، وأنها تناقض أبسط المسلمات وأوضح البديهات .

لذلك كان من قواعد هذا الدين عندهم أنه لا يستند على أساس من العقل أو الفهم . وأنه على من يدين به أن يبطل عقله ، ويعطل إدراكه ويقبله دون وعي أو فهم .

ومن ثم فقد جرى على لسان خاصتهم وعامتهم أن حقائق الدين لا يقبلها العقل لأنها فوق إدراكه ، وقد مر بنا قول أحد علمائهم عن أصول دينهم بعد شرح تلك الأصول : « وهـذه حقيقة تفوق الادراك البشرى » ،

وأصبح من القواعد التي تجرى عندهم مجرى الأصول الدينية المسلمة ، أن قواعد هذا الدين وأصوله هي للإيمان وليست للتعقل ، وأنه لكى تقتنع بذلك الدين عليك أن تؤمن به أولا ، ثم يأتيك الاقتناع والفهم بعد ذلك .

فانظر كم هو عجيب أمر إنسان يعتنق دينا فى غيبة من وعيه وإدراكه، بل والأفضل من ذلك أن يكون على وعى وإدراك يوضحان له بطلان تلك العقيدة ويبينان له زيفها .

ثم إذا كان على الانسان أن يقبل مثل ذلك المبدأ ، وهو اعتناق دين لا يقبله عقله بحجة أن مبادئه فوق إدراك البشر . فما الضمان للإنسان فى أن ما اعتنقه هو الصحيح ، وأن خلافه هو الباطل ؟ وبناء على أى شيء يعتنق الإنسان دينا ويترك الأديان الأخرى إذا كان الانسان يقبـــل ما يقبل ، ويرفض ما يرفض بعيدا عن العقل والفهم ؟

• • •